قائد الانتصارات

عمرو ناصف | جريدة الثبات

2009.02.12

يا منشدين العرب.. يمامة بُنّية حطّت على برجنا قاصدة الملاغية، واللّه زمان يا طرب يا كلمة عربية.. يا منشدين العرب السهم فينا انضرب يا منشدين: الحقيقة والمعرفة ضايعين ولما لعلع قمرنا ولون البساتين، التمر حنة استحمى وغرق الفساتين، والفل كل اشتياقه بحضن هوا الياسمين، حتى الحزين البنفسج ما بقاش جماله حزين.. يا شهرزاد الحطاية عميت على السامعين، مين العريس الليلادي ومين العروسة مين، يا منشدين الملاحم في سائر الأزمان.. رضوان عريس المقاومة وهو ضيف رضوان، والجنة جية العروسة والضامن الرحمن، ياقلب عين الحقيقة ياابن الحسين يا شهيد، عقد اللوالي نادالك لبيت نداه من بعيد، وصبحت في العقد حبة وفي المسيرة شهيد، صبحت في العقد حبة وفي المسيرة نشيد.

أحمد فؤاد نجم

هناك من كان يعتبره رقم(4) مكرر على قائمة المطلوبين من قبل العديد من أجهزة المخابرات الغربية، وعلى رأسها المخابرات المركزية الأمريكية، وهناك من يعتبره الأصل وتن بن لادن هو الواحد المكرر، بالنظر إلى الأقدمية، خصوصا ان رضوان كان مطلوبا وبإلحاح لسنوات طويلة كان فيها بن لادن حليفا بشكل مباشر أو غير مباشر للإدارة الأميركية، أو أن كلا من زعيم ما أصبح بعد ذلك تنظيم القاعدة، والبيت الأبيض، تقاطعاً مصلحيا لنحو عقدين من الزمان، لكن الحقيقة هي أن أحدا لم يكن بالنسبة إلى المخابرات الامريكية أخطر منه، لأنه كان بالنسبة إليهم شبحاً لا يمكن لاحد أن ينكر وجوده، ولا يمكن لأحد أن يؤكد هذا الوجود بالدليل المادي، ولعل هذا هو السبب في قائمة الاتهامات الطويلة التي نُسبت إليه.

فمن خطف الطائرات إلى تفجير سفارات إلى عمليت عسكرية أودت بحياة المئات من الاسرائيليين والأمريكيين والفرنسيين، إلى تدريب وتأهيل الآلاف من المقاتلين الفلسطينيين والأفغان والشيشان والبوسنيين والألبان والعراقيين، إلى العديد العديد من العمليات والأعمال التي ليس من جهة تملك أدلة دامغة عن وجود علاقة، أو انتفاء علاقته بها، لكن الأكيد الذي يمكن القطع به، والذي لم يعرف إلا بعد استشهاده هو أنه القائد العسكري لانتصارات حزب اللّه، لا سيما انتصاري 2000و 2006، وقد قال عنه سماحة السيد حسن نصر اللّه في تأبينه:

لقد ترك خلفه عشرات الآلاف من الشباب المدربين للقتال، والحاضرين للشهادة، إنه عماد فايز مغنية، أو الحاج عماد، أو الحاج رضوان، المولود في السابع من ديسمبر/ كانون الأول من عام 1962، في بلدة طيردبا الجنوبية.

عماد مغنية الذي عاش نحو 30سنة من عمره الذي لم يتجاوز السادسة والأربعين: حياة أشبه بالأساطير:

يختفي، حتى يكاد يصبح نسياً منسيا، ثم يصبح بين ليلة وضحاها حديث الناس والإعلام وأجهزة المخابرات الغربية والصهيونية التي لا تملك له إلا صورتين، الأولى مشوشة وغير واضحة في المعالم، التُقطت له قبل أن يبلغ العشرين من عمره، والثانية اكتشف العالم بعد ربع قرن أنها لشخص مجهول.

تنقطع أخباره من جديد، مخلفا صراعا متصاعدا بين فريق قطع بوجوده، وفريق آخر جزم بانه مجرد سراب، أما الفريق الأول فيبرر عجزه عن رصده أو ملاحقته بحس مغنية الأمني المرهف: وبدرته الفائقة على المراوغة والتخفي تارة، وتارة أخرى بأنه يجري كل عدة أعوام عمليات تجميل يغير بها كل ملامحه، وقالوا إنه غير اسمه، وقالوا قد تكون إقامته في أفريقيا أو إيران، وربما في الولايات المتحدة، بل قد تكون إقامته في إسرائيل نفسها. أما الفريق الثاني فرفض عملياً وموضوعيا الاعتراف بوجود شخص لا يوجد من يعرفه، لا يوجد من يحكي عنه قصة أو واقعة، ولا يمكن أن يستدل على صديق أو قريب أو جار رآه أو لمحه، بل كيف يمكن الإقرار بوجود شخص لا يمكن العثور له على صورة، فملفاته الدراسية وأوراقه الثبوتية في إدارات الدولة مفقودة، وحتى أمه لا تملك له صورة شخصية أو جماعية في أي مرحلة من مراحل حياته.

لكن ما كان يعتمد عليه ويستند إليه فريق إنكار وجود مغنية، كان عند الآخرين أدلة ثبوتية، ليس فقط على وجوده، لكن على أنه شخص غير عادي، وقد كان هذا الرأي يصيب كبد حقيقة استشفها في وقت مبكر العديد من القادة العسكريين لحركة فتح، الذين أجمعوا منذ اللحظات الأولى التي شاهدو فيها ابن الخامسة عشرة، الملتحق للتو بصفوف الحركة، على أنهم ليسوا أمام نواة بطل من نوع فريد فحسب، فصدق إيمانه المبكر بعدالة القضية الفلسطينية، وذكاؤه والمعيته، وسرعة إلمامه بالتدريبات، واستيعابه للدورات العسكرية الأمنية الواحدة تلو الأخرى، كل ذلك وأكثر منه، يقطع بلا شك بأن الفتي عماد مغنية مشروع قائد فذ بكل المعايير والمقاييس.

لم تكن مسيرة الحاج عماد مغنية تملأ الأرض فقط كلما تنفذ عملية نوعية ضد الصهاينة، أو الاستكبار الغربي، بل أيضا كلما قدم بيت فايز مغنية شهيداً.

ففي الحادي عشر من حزيران/ يونيو عام1984، وأثناء محاولته انقاذ عائلة تعرضت للقصف في محلة بئرالعبد بالضاحية الجنوبية لبيروت، حيث كان يحاول سحب الجرحى ونقلهم إلى المستشفى، استشهد شقيقه جهاد المجاهد في المقاومة الإسلامية عن عمر 28عاماً. وفي الوحد والعشرين من كانون الأول/ديسمبر عام 1994 استشهد شقيقه الثاني فؤاد، وقد جاوز 31 عاماً، بعد تفجير سيارة (فان) مقابل مكان عمله قرب تعاونية الإنماء في محلة الصفير في الضاحية الجنوبية.

لنحو ثلاثين سنة ظل الحاج عماد موضوع جدل وأخذ وردّ، وتأكيد وإنكار، حتى حلّ الثاني عشر من شباط/ فبراير من عام2008. ففي هذا اليوم قُطع الشك باليقين، وأيقن القاصي والداني أن الحاج عاد مغنية أكبر وأعظم من كل الأساطير التي حيكت.

في ذلك اليوم سقط العماد شهيدا، في عملية تفجير استهدفت سيارته حي كفرسوسة في دمشق.

في ذلك اليوم استشهد الحاج عماد شهادة فيها من ملامح الميلاد أكثر بكثير من ملامح الرحيل، ففي ذلك اليوم تم الإعلان للمرة الاولى عن موقعه ومكانت ودوره، وظهرت صوره، وبدأ الإفصاح عما يمكن أن يُقال عن صحيح سيرته ومكانته.

وفي ذلك اليوم أيضا حدثت أكثر من معجزة حقيقية بكل المقاييس والمعايير.. فمئات الآلاف الذين خرجوا في وداعه في لبنان والعديد من الدول العربية والإسلامية، خرجوا ليقروا بالقيادة لشخص أشبه بالملائكة، الكل يوقن بوجودها، وإن لم يروها أو يعرفوا لها أسماء أو مهام.

أما المعجزة الثانية التي حدثت لحظة استشهاد الحاج عماد مغنية، فهي أن هذه اللحظة شهدت بداية تنفيذه لعملية جهادية هي الأهم والأقوى على امتداد مسيرته الكفاحية التي امتدت لأكثر من 30 عاما، عملية تضرب في أكثر من اتجاه ، وتحقق جملة من الأهداف الاستراتيجية، فقد قام الحاج رضوان بعد استشهاده باعتقال الكيان العنصري الصهيوني عن بكرة أبيه وبكل مكوناته، وفرض حظرا كاملا وشاملا لحركة وتجول الإسرائيليين ليس فقط داخل فلسطين المحتلة، إنما في العالم كله، وكيف لا والعدو الصهيوني هو أكثر من يدرك ويتيقن من فداحة الثمن الذي سيدفعه جزاء إقدامه على اغتيال القائد عماد مغنية؟

ولأن جولة الباطل ساعة وجولة الحق إلى قيام الساعة، قرر الحاج رضوان بدمائه دق مسمار في نعش الكيان الصهيوني إيذاناً بزواله.

إنه عماد مغنية الذي خافه وسيبقى يرهبه كل معندٍ أثيم، الحاج رضوان الذي يحمله الأميركيون مسؤولية كل فشل وإخفاق وانكسار، ويحمّله العدو الصهيوني مسؤولية كل عجز ونكبة وهزيمة، وسيحملانه فيما بعد الكثير الكثير من الهزائم والانكسارات، التي ستتواصل حتى تحقيق وعد زوال إسرائيل.